رحلة

بقلم نديم رعيشلي

مهداة إلى الصديق (م . ا) ، الذي كنت يوماً ما ،عصا حلهوترحاله بجولاته الفكرية، ثم القى بعصاه هذي بوادي النسيان ، وانطلق وحده يعيش مع اساطين الفكر والقانون... ومرت الايام ، واخضر هذاالعود فكانمن ثماره تلك الرحلة .

نديم

تعشّق الانسان منذ القدم – منذ كانت الكلمة المكتوبة ، وعبر اليراع عن خلجات الضمائر والنفوس – ، سير السياحة ، وكتب المغامرة والأسفار ، وعلق قلبه باولئك الأبطال الذين جابوا الأقطار ، وتحدوا الأقدار ، فدفعوا سفن الأمل على لجج الأجل . وما ذلك إلا لأن هؤلاء الميامين يكملون مركب النقص بنفسه تجاه الطبيعة ، فينهضون بضعفه قوة ، وبعجزه عنفواناً ، يتمرد على الواقع المحدود قارباً وخيالاً ، برحلة تحكى ، ولفظ يستقر في اعماق الأسفار ، فيسفر بضمير الزمن قصة الطموح والأمل ، والأدب والمتعة الحية .

وبكل سهولة ، وما دمنا بمعرض السياحة ، فلنواكب قليلاً تداعي الأفكار فينا على شراع الخيال ، وجناح الفكر ، لنتسلل إلى مخدع شهرزاد،تلك المرأة الحكيمة الداهية التي قبعت بجانب ملكها شهريار تقص عليه أنباء السندباد ، وهو مشدوه يأخذه العجب ، وهي لا تزال تخاتله، فتخاتل فيه عزريل حذر رحلة بها الى ساحل السكينة الأبدية ، ولماتقض وطر الشباب والجمال .

ولربما كان اول سائح مغامر « آدم » الذي حدثنا عنه الآباء حديث حقيقة فضحها التاريخ اسطورة ، وتحليل عاد كمحاولة للتعليل ، فاشترك الفكر والخيال بنسج تلك الملحمة التي صور فيها مبدعها « آدم » ملولاً متبرماً بالخلد وعلى عينيه غشاوة ، فزلت به القدم ، فاذا النعيم اثر بعد عين ، واذا صوت العدالة المقهور يناديه، – فيناديها بندائه –: بعرق جبينك كل خبزك. وعلى هذا احسب ان اول ثلمة احدثها المرء في الأرض،كانت السطر الأول في سفر المعرفة، سطرته الطبيعة في تاريخه ،فأحس بضربات نبضها دماء الحياة تنسكب في فؤاده ، فراش منها قوادم المنطق والفلسفة ، وخوافي الأدب والفن . وما زال هذا السفر يزداد صفحة صفحة ، تكتبه الأيام ، وتنقط حروفه العقول ، تستشف روح الكون شيئاً فشيئاً ، وتجلي سر الأبدية رويداً رويداً ، وكلما ازداد الفكر خضوعاً للطبيعة وخنوعاً لقانونها ، – بتمرد على الجمود ، وايمان بطاقة العقل البشري – اي معرفة به ، وتمثلاً له ، تمكن من استلام زمام امرها حتى يصبح – سيدها المطلق ، ويلقي نير الجهل جانباً ، يتأمل مجرى الحوادث التي هو فيها زائد الحركة بالعجل ، حتى تتم آية الانسان، فيلج من جديد باب الخلد الذي صوره الخيال قديماً فلم يدركه الواقع ، يلجه ، ولكن ليس على بساط الريح ، بل باندفاع الصاروخ.. وعلّم آدم الأسماء كلها.. اي علمه كيف ينظر الى الكون ، فيحل معمياته وأحاجيه ، لا يقف دونها مكتوف اليدين وخضم الجهل متلاطم الأمواج ، وريح الظلمة تكاد تمزق الشراع . والكسول فكرياً لا يسبر غور الحقيقة بعين البصيرة النفاذة المتقدة ، بل يكتفي بالاجترار ، مثل مغامر قديم أدمت رياح المقاومة قوادمه ،فمات في غمرة المغامرة ولسان حاله يقول: تجري الرياح بما لا تشتهي السفن .

وبعد ، لا يخطرن ببالك انك متعرف الى ابن بطوطة جديد ، او سندباد معاصر ، فصاحب هذه الثالات التي ترغي بنفسه كزبد البحر يكاد لا يعرف من البلدان سوى مدينته ، وهو إذا ما ركب يوماً سيارة الى قرية ما ، غاص في مقعده لا ينظر يميناً ولا شمالاً ، بل لا يصعد طرفه بتلك البطاح والمنبسطات التي كانت فيما مضى ميدان تزاوج الافكار، وتمازج الثقافات والحضارات، وفي احسن حالاته يخلق لنفسه جواً خاصاً بقراءة كتاب او تصفح مجلة ، ثم لا يلبث ان ينطق واقعه بقول المتنبي : انام ملء جفوني عن شواردها . ويخيّل اليه احياناً ، وحب التجوال فيه رغبة الطير في التحليق ، والبط في السباحة ، اجل ، يخيّل اليه ان أخطر رحلة قام بها في حياته ايام طاف بأوراق اجازة سفره على كافة الدوائر الحكومية ، فبرأت ذمته بما عليه لصندوق الدولة ، حتى إذا ما انتهى بتلك الاوراق الى دائرة الامن نامت في ادراجها ضجعة اهل الكهف، وان هؤلاء ان سنحت لهم الحياة – كما يقال – بهنيهات عاودوا فيها النظر لدنياهم من جديد ، فما لتلك الاوراق نشور لعهدها ، ولا بعث لحياتها . لذلك اكتفى عن السفر بوسائل النقل: سيارة وطائرة وقطار،بالسفر–وهو في محله لا يبرحه–على متون الحرف المستقر في اعماق الكتاب ، تمر به العين ، فيمخر الفكر في مجاهل المعالم المثلى ، والعوالم الفضلى ، فترتسم على

صفحة مخيلته صورة (مونتسكيو) الذي شرع يراعه لنقد الحياة الباريسية ، فانتجع ارض فارس مرتعاً لخياله ، وملعباً لفكره ، ويقف عن كثب يرمق الفيلسوف الانكليزي (بيكون) ، وقد رمى بشبكة معرفته الى ما وراء المحيطات ليقتنص صورة عالم مثله على لوحة الفكر حرفاً قصرت دونه الريشة ، وحلماً تمخضت عنه الحقائق التجريبية . وليس هذا ببعيد إذا ما قيس برحلة ابن المقفع العربي ، ولافونتين الفرنسي اللذين أوغلا في عالم الحيوان فطبعا فيه صورة الانسان : بخيره وشره ، وانسجامه ومتضاداته . والحق أن من طبيعة هذا الفكر الانطلاق ما وسعه الانطلاق ، حتى احس لذاته يوماً ما ان له عالماً وحده قائماً فوق كل المدركات والمحسوسات ، فذاب شوقاً لادراكه والاندماج فيه بدأبٍ يتناهى فيه كل دأب ، وجهد ينصبّ فيه كل جهد ، لان ذلك — على ما تراءى له — خاتمة المطاف من تلك الرحلة المضنية التي يكثر فيها الجهد والاضطراب في برزخ العمر ، والتي ستؤول بتلك النفوس والعقول إلى الراحة التامة والهدوء الذي لا معكر لصفوه ، ولا مكدر لهنائه . بيد ان هذا الدأب لا يلبث ان تحور جذوته الى رماد فيتعثر الكائن بقيود الارض ، منضماً الى صدر امه الارض ، ويجلجل ملء الوجود زماناً ومكاناً صوت ابي العلاء ، ناقضاً تلك الرحلة بافتراض رحلة اخرى :

ولو طار جبريل مدى عمره من الدهر ما استطاع الخروج من الدهر

ونزيد — مقتبسين لا مبتكرين — بان هذا الفكر ولو جاز معالي ابي تمام القائل :

معال تمادت في العلو كأنما تحاول ثأراً عند بعض الكواكب

هو ابداً خفق جنان عصره وصورته : موجبة سالبة ، زاهية داكنة ، مشرقة قاتمة ... مضافاً الى ذلك حالات مد البصر وقصره ، وهذا ما يمكننا ان نقول ، بتفهم منطق الحوادث واستنباط نتائجها بمقدماتها : « دراسة الماضي تلفزيون الحاضر ورادار المستقبل » ، وعلى ضوء هذه النظرية نفسها ، وبمنظار هذا الرادار ذاته نحمل بايدينا مصباح « ديوجين » ملتمسين به الأديب من خلال سياحتنا على شق اليراع في مدى الفكر كائناً اجتماعياً يعايش الناس ويخالطهم ، يأخذ منهم ويعطيهم ، جاعلاً من رسالته حديث الحياة والنفس الانسانية بآمالها وأتراحها بطموحها وتوثبها ، شارعاً يراعه للايغال في مفاوز الكون ومخارم المجتمع ، عازفاً عن النظر في استقرار اللفظ وتقلبه على وثير الديباجة ، وفي ارستقراطية العرض واوتوقراطية البرج العاجي ، وبنفسه أبداً شيء من استلهام الواقع المادي ، والمحيط الاجتماعي ، بتفاعل المادة ، والقيم الانسانية ، والقواعد الاخلاقية ، لتحرير الكائن من عبودية المادة ونير المجتمع بتبلوره فيه جوهراً فرداً وذرة حية تنطلق دائماً وأبداً الى الأمام كلاً وجزءاً ، حيث يخلو البرج العاجي ، وتعرى الدوحة الافلاطونية الا من ورقة كتب عليها : هنا كانت الرياضة الفكرية والتحليقات النظرية ، وآية الفن للفن .. واخالني ، وانا في غمرة هذا الشعور الجارف على تلك السفين التي شطحت بي بعيداً ، فنأيت عن الشاطيء ، اخالني قد انكفأت راجعاً الى الماضي ، سائحاً في عوالم الزمان لا المكان ، لاقف على مشهد ابي الفلاسفة : سقراط الحكيم وقد ضرب السفسطة في الصميم .

ترى وشراع الادب ما زال حرب الاعاصير ، وكفاح الزوابع ، تجتذبه التيارات المختلفة ، وتتنازع صواريه النزعات المتباينة ، ترى متى سيشهد انسكاب نور نجم القطب في ضلوعه ؟ فيشهد بذلك ميلاد سقراط الجديد الذي يقيم نفسه قائداً ومعلماً لطلاب الحق من حملة الاقلام ، فنأخذ عنه : ان سياحة الفكر في عالم المثل العليا ضرورة اجتماعية طبيعية ، لانها تمثل جانباً من الناموس الاعظم بدوران الارض وسياحتها في فلكها الذي لو حادت عنه لاستحالت العوالم يبابا .. والانسان ابن الطبيعة ويخضع لقانونها ، ويرقى ، بالطفرة والتدرج ، السلم الحضاري والعلمي بتمثل هذا القانون ، ويهيب بنا الى حمل لواء الفكر وقرع ابواب جمهورية افلاطون الذي كادت تنخلع عنقه دون رؤيتها رقعة جغرافية على سطح هذا الكوكب .. ويسيح الفكر فيلج من جديد محراب شهرزاد الاقدس ، لا ليقرأ لها اسطورة طفولة النهد والدمية الجميلة ، بل ليأخذ عنها الامثولة الحية في تنشئة الجيل الصاعد وتغذية المجتمع بعناصر الفعالية والعمل والانتاج .

والغاية من كل الجولات الفكرية الشريفة هي الرجوع بالمرء الى فردوسه المفقود الذي ان كان اسطورة املاها الخيال فتناقلتها الاجيال ، فلينتصب الانسان المبدع الخلاق ، وليقل كلمته التي ترد القوة فعلاً ، والمحال حقيقة ، والحدث الاستبطاني نظرية تمخضت عن عملية . واخيراً ، وما دامت الامم العظمى والدول الكبرى نازعة جلها للاخذ بفكرة الاقتصاد الموجه المنهاجي ، فلمَ لا يكون بالمثل أدب موجه منهاجي يضم شتات الادباء ، ويلم شعث الشعراء الذين اصابهم قديماً وشاش اللغة لأنهم كانوا يهيمون في كل واد ، ويرتعون في كل سفح متحصنين ببروج اوهامهم واحلامهم التي هي في الغالب الاعم من انشاء ردود افعالهم العضوية الباطنية . وينتهي بنا المطاف إلى الادب الواقعي المسبور بمجهر الحياة ومرصد المجتمع ، ويستريح شراعنا على جودي المعرفة والفضيلة والعلم .

نديم مرعشلي